مجلة علم النفس

مجلد ٥ | فبراير — مايو ١٩٥٠ | عدد ٣

فصول فى الطب السيكوسوماتى (٣)

الطب النفسى الجسمى Psychosomatic Medicine

ربو الشعب الرئوية

للدكتور مصطفى زيور

يعتبر تاريخ مشكلة الربو ، خير مثال لتطور الدراسات الإكلينكية التى أفضت إلى الاتجاه السيكوسوماتى . فقدفطن الأطباء منذ القدم إلى ما للعوامل النفسية من أهمية فى إثارة نوبات الربو . فهذا « لينيك » Laennec يعرض فى فصل أفرده للربو لحالة مريض كانت تنتابه نوبة الربو إن وجد فى مكان مظلم أو إن أغلق باب غرفته . ويذكر الطبيب « تروسّو » Trousseau عن نفسه — وقد كان مصاباً بالربو — أنه ارتاب ذات يوم فى أمانة سائق عربته ، وظن أنه يختلس من الشعير المخصص لجياد العربة فانتابته نوبة ربو يعلق عليها بقوله : « طالما تعرضت فى شوارع باريس وطرقاتها ، وفى السكك الزراعية ، لجو به من الغبار أكثر من ذلك المكان الذى لم ألبث به غير لحظات قصار أثناء وزن الشعير . ولكن جهازى العصبى اضطرب تحت التأثير النفسى الذى أحدثه الاعتقاد بأن شيئاً ما سرق من بيتى — رغم تفاهته — حتى أن مثيراً بسيطاً هو ذلك الغبار القليل كان له مثل هذا الأثر العنيف » ويذكر الدكتور جالوب[1] حالة مريض تحدث النوبة لديه رائحة السيارات ، حتى كان يتجنب دائماً

(1) Gallup: L'Asthme d'origine Psychique. Gazette Médicale de France. 1937.

دخول حظائرها ، ويحس بضيق فى التنفس لمجرد سيره فى الطريق العام . وذات يوم دخل إحدى دور السينما ، ولم يشعر — برغم احتباس الهواء — بأى ضيق ، ولكن ما أن ظهرت على الشاشة إحدى السيارات حتى انتابته نوبة ربو حادة .

وقد أدى تقدم البحوث الكيميائية ، واكتشاف ظاهرة تغير الحساسية الكيميائية المعروفة بالألليرچيا Allergy ، إلى صرف الأذهان عن الجانب النفسى لمرض الربو ، ولم تعد الدراسة الطبية يعنيها غير الجانب الجسمى حتى بدا للبعض أن التفسيرات السيكولوجية بعيدة عن التفكير العلمى الحق . ولكن البحوث الخاصة بالألليرچيا لم تسفر إلا عن قدر ضئيل من النتائج بينما تقدمت البحوث النفسية تقدماً كبيراً فاتجهت الدراسة الإكلينكيه وجهة جديدة : ذلك أن الجانب النفسى لم يعد مجرد مظهر ثانوى ، وانتفت النظرة الثنائية التى ترى الإنسان مركبا من جسم ونفس وحلت محلها نظرة جديدة تعتبر الظواهر النفسية والجسمية تعبيرين مختلفين عن وحدة الحياة الإنسانية . ولم تلبث هذه النظرة غير قليل حتى تمت لها السيادة وأصبح شعار الأطباء « أحرى بنا أن نعرف حقيقة المريض الذى انتابه المرض ، من أن نعرف حقيقة المرض الذى انتاب المريض » . ويعنى ذلك أن معرفة شخصية المريض وأحواله لا تقل أهمية بأى حال عن أهمية معرفة طبيعة المرض وأعراضه .

وهكذا كان هدف الدراسة السيكوسوماتيه أن تضيف إلى الوصف الإكلينيكى للصفات الجسمية ، وصفاً آخر للسمات النفسية كى يكتمل فهمنا للمرض . وأصبح من المسلمات أن ما يصفه لنا الفسيولوچى وصفاً تحليليا فى عبارة كيميائية هو نفس ما يصفه السيكولوچى وصفاً تركيبيا فى عبارة سيكولوجية .

* * *

من بين البحوث الجديرة باهتمامنا من حيث العمق فى وصف شخصية المريض بالربو نذكر أولا تلك التى نشرها المؤلفون الإنجليز « روجرسون » و « هارد كاسل » و « دجوى [1] » ، وثانياً البحوث التى قام بها المحللون النفسيون الأمريكيون « توماس فرنش » ومعاونوه [2] .

(1) Rogerson, Hardcastle, Duguid — A psychological approach to the problem of asthma and the asthma eczema-pruringo syndrome. Guy's Hosp. Rep. 85, 289, 1935.

(2) French, Alexander & Others — Psychogenic Factors in Bronchial Asthma. Psychosom. Med. Monog. 1941.

كان بحث المؤلفين الإنجليز على أطفال مصابين بالربو ، وفيما يلى خلاصة بما يتميز به هؤلاء الأطفال من سمات سيكلوچية : « ذكاء عال تكشف عنه اختبارات الذكاء اللفظية ، مع ضعف فى القدرة على العمل اليدوى ، وقلق ملحوظ ، وانعدام الثقة بالنفس وأخيراً قدر كبير من النزعة العدوانية الكامنة والتركز الذاتى» . ولقد تبين أن آباء هؤلاء الأطفال يقفون منهم موقفا يسوده الانشغال والرعاية إلى حد مرضى وهى صفات توحى بوجود تعويض ، أى أنها مغالاة فى العطف تخفى بغضاً مكبوتاً ، وقد راعى هؤلاء الأطباء فى محاولاتهم العلاجية أن يجعلوا الآباء يتخذون موقفاً أقل انشغالا وقلقا على أبنائهم ليتاح للأطفال فرص أوفر للاستقلال . وقد كانت معظم النتائج مسددة .

أما الأمريكيون فقد اهتموا بوجه خاص بالبالغين ، وتناولوهم بالتحليل النفسى . وفيما يلى يوجز « فرنش » ما أسفرت عنه هذه البحوث : « تنزع نوبة الربو لأن تثار فى المواقف التى تهدد . المريض بالانفصال عن بديل أمه . وقد يكون الانفصال الذى يخشاه المريض انفصالا جسدياً ، وكثيراً ما تحدث الأزمة حين يتعرض المريض لغواية من الغوايات تهدد ارتباطه الوجدانى ببديل الأم . وفى مثل هذا الموقف تكون أزمة الربو بمثابة دموع مكبوتة » .

وفيما يلى نسرد تاريخ حالة ربو قمنا بعلاجها ، ومنه تبرز السمات التى تميز شخصية المصابين بالربو ، ويتبين ارتباط هذه السمات بأعراض المرض الجسمى[1] :

سيدة فى السادسة والأربعين من عمرها ، تتلخص شكواها فى اعتلال صحتها اعتلالا يتزايد منذ ثلاثة أعوام ، وأوجاع فى غير ما موضع من جسمها ، وآلام فى الرأس وضيق وقلق ، وأخيراً نوبات ربو تعاودها منذ حوالى العشرين عاما . انتابتها أول أزمات الربو فى عام ١٩٢٣ غداة وضعها طفلها الثانى . ومنذ ذلك الحين تكاثرت عليها أزمات الربو مصحوبة بالتهاب الشعب . وكثيراً ما كانت بعض هذه الأزمات من الصنف الحاد الذى يستلزم الوجود بالمستشفى لاتخاذ الإجراءات العلاجية الحاسمة .

تزوجت هذه السيدة فى سن العشرين من شاب رومانى ، وبعد قليل من الزواج يتبين أن الزوجين يرتبطان ارتباطا وجدانيا يقوم على أساس عصابى ،

(١) Ziwar, M. Psychanalyse des Principaux Syndromes Psychosomatiques. Revue Française de Psychanalyse. 4. 1948.

مما جعلها عرضة للاستفزاز المتبادل ، الذى يؤدى إلى الخلاف فالافتراق فمحاولات الصلح فالعودة إلى الحياة الزوجية لاستئناف الدور وهكذا دواليك. وفيما يلى أروى حادثاً وقع عقب الزواج فهو يصور فى وضوح تقلب حياتها الزوجية وتقلقلها : أصيبت الزوجة ذات يوم بحمى وظهر فى بصاقها بعض خيوط من الدم ، فلم يعر زوجها الأمر اهتماما فتطلب الأمر إلحاقها بالمستشفى حيث تحظى برعاية أوفر . وما زارها زوجها مرة إلا وأسمعها من الأمور ما يغيظها كمغامراته مع النساء ، حتى اجترأ يوما فطالبها بخاتم الزواج ليبيعه . فى هذا الجو بدأ ينتابها فى موعد الزيارة اليومى نوبة من القشعريرة يعقبها ارتفاع فى درجة الحرارة مما دعا إلى تشخيصها بأنها ملاريا ولكن فحص الدم لم يؤيد ذلك التشخيص . وما كادت تشفى حتى وصلها خطاب من زوجها يخبرها فيه أنه قرر هجرها . هنالك يسقط فى يدها ، وتسارع فى ارتباك إلى المنزل حيث تعلم أن البوليس قد استدعاها لاستجوابها . وفى مركز البوليس تواجه باتهام زوجها لها بمغادرة بيت الزوجية بعد أن سرقته . وبرغم هذه التهمة التى يلصقها بها الزوج فقد حجز لها حجرة بأحد الفنادق ، ولكنه يطالبها بأن يقضى معها الليل فى هذه الحجرة . وترفض الزوجة هذا الطلب فيهددها بالاحتفاظ بالسند القانونى الوحيد الذى يثبت براءتها فى قضية سرقة كانت قد سجنت من أجلها ظلماً . حينئذ يصاب جسمها بانتفاخ مما اضطرها إلى العودة مرة أخرى إلى المستشفى حيث شرع الأطباء يعالجونها من تورم أوذيمى فى الأطراف .

وواضح مما تقدم أن سلوك الزوج سلوك عصابى بحق . أما سلوك المريضة ، فإنه يفصح عن استعداد للاستجابة لمواقف الصراع النفسى بأعراض عضوية مرضية ، كما تكشف عن ذلك النوبات الشبيهة بالملاريا ، والورم الذى كان وظيفياً لا عضوياً . هذا ولا بد من الإشارة إلى أن المريضة كانت تمثل دائماً فى موقفها من زوجها دور الضحية المجنى عليها ، وذلك خير دليل على ارتباطها المازوشى بزوجها . وقد تنبهت هى نفسها إلى طبيعة هذا الارتباط إذ تقول :

« شد ما أشعر بالخجل إذ كابدت كل ماكابدت ؛ وكم أحتقر نفسى إذ احتملت زوجى ولم أطلب الطلاق . »

وهنالك حوادث أخرى زخرت بها حياتها الزوجية ، لا داعى لذكرها حيث أنها جميعاً من نفس الأسلوب . ولكن لا بد من الوقوف عند الحادث الذى وضع

حداً لحياتها الزوجية ، فهو يدل دلالة عميقة على سيكلوجية الربو. انهم زوجها فى قضية اختلاس بالاشتراك مع المجرم المشهور « ستافسكى » ولما اكتشفت الأمر حاولت تداركه قبل تفاقمه دون جدوى . وعلى أثر ذلك قرر الزوج العودة نهائياً إلى بلده رومانيا تفاديا للعقوبة . وصحبته الزوجة يوم الرحيل إلى المحطة حيث ودعته . وفى المساء من نفس اليوم انتابتها نوبة ربو كانت أول النوبات الكبرى التى تعرضت لها status asthmaticus ، وبلغ من عنف هذه النوبة أن لازمتها عدة أيام اضطرت أن تلزم المستشفى طوالها وهى على أسوأ حال . وبعد عامين من هذا الحادث تتسلم رسالة من زوجها تهيج فيها الشوق والحنين الزائد إليه حتى لتعتزم اللحاق به ، لولا أن واجبها إزاء أبنائها يحول بينها وبين تنفيذ ما اعتزمت . وتحت وطأة هذا التردد والصراع النفسى تصيبها ثانى نوبات الربو الكبرى .

ولا بد لنا إن أردنا تفهم طبيعة ارتباط هذه السيدة بزوجها ، أن نساير تكونها الوجدانى منذ طفولتها كما تكشف عنه مأساة طفولتها التى تسردها على النحو التالى : « كان من عادة أمى أن تتحدث عنى بلفظ «الأخرى»، وكان أبى يجيب ، (إنها ليست بنت حرام) ، كنت أحس كما لو كانت أمى لا تستطيع احتمالى ، فما أذكر أنها داعبتنى يوما ، وكنت حين أراها تداعب أخواتى يتولانى حزن شديد . ومع ذلك فقد كنت أكن لأمى الحب ، وأعجب بجمالها ورشاقتها ... ما نازعنى شوق إليها إلا صدتنى عنها . ولكنها عندما مرضت فى طفولتى أحسنت رعايتى واهتمت بعلاجى . وعلى أن أقر — فضلا عن ذلك — بأنها كانت تحمينى من الآخرين ، إنها إن كانت ترى من حقها أن تسىء إلى ، فما كانت تقبل من غيرها أن يسيئوا إلىّ . من ذلك أنها حملت على عاتقها الدفاع عنى فى القضية التى انتهت بسجنى ، ومع ذلك فقد عبرت لى عن اغتباطها بهذه النهاية . »

نستطيع أن نفهم من هذه القصة كيف كانت الأم لشخصيتها العصابية تفرغ فى ابنتها المسكينة كل ما يضطرم بين جوانحها من بغض وكراهية ، وكيف كانت تحرص فى نفس الوقت على أن تبقى ابنتها فى حوزتها راضخة لها معتمدة عليها ، تتلقى منها الأذى وتحظى منها بالحماية من الأغراب ، كما لو كانت وحدها دون غيرها صاحبة الحق فى التصرف فى أمرها بالخير أو بالشر .

فى هذا الجو تكونت شخصية المريضة ، وفرض عليها ارتباطها الوجدانى هذا بأمها أسلوبها الخاص فى الاستجابة للمواقف الوجدانية المختلفة . ويتميز هذا الأسلوب بانعدام النضج الوجدانى ، واتجاهه دائماً إلى تحقيق الوفاق مع كل من يقوم مقام الأم حتى لو كان رجلا لا امرأة . وفى ذلك تفسير كاف لعلاقتها الفريدة بزوجها الذى كان لها بمثابة الأم فموقفه منها لا يختلف عن موقف أمها منها من حيث الرعاية المشوبة بالقسوة والتحكم . ولا يفوتنا أن رحيله تسبب عنه أعنف نوبة ربو أصابتها . ومادمنا بصدد قسوة الأم فى معاملتها للمريضة فى طفولتها وجب أن ننبه إلى أن هذا الضرب من المعاملة ليس أمراً شائعاً لدى جميع المصابين بالربو . فغالبا ما كان موقف الأمهات من هؤلاء يتصف بالعطف المفرط ، والرعاية الزائدة عن الحد لدرجة عطلت نموهم الوجدانى ، إذ استمرأوا هذا العطف وهذه الرعاية وتشبثوا بموقفهم الطفلى فكانوا فى حاجة دائمة إلى الأم أو من يقوم مقامها . إذن فالرعاية المفرطة تؤدى إلى نفس النتيجة التى تؤدى إليها القسوة فى المعاملة ، وما ذلك إلا لأن الرعاية المفرطة تخفى بغضاً مكبوتاً .

نعود إلى مريضتنا ثانية فنشير إلى أن الفحص الطبى لجسمها ، والاختبارات المعملية العادية ، والكشف عن الرئتين بالأشعة ، وفحص الأنف ثم الألليرجيا بواسطة اختبارات الجلد ، لم يسفر عن شىء يستحق الذكر . لذلك يحق لنا أن نعتبر الربو فى هذه الحالة عصابا الغلبة فيه للعوامل النفسية .

* * *

هذا وقد جاءت دراسة شخصية المريضة بواسطة منهج التحليل النفسى مدعمة للنتائج التى أسفرت عنها الدراسة التاريخية السالفة للمريضة . فقد أتاح لنا التحليل النفسى أن نعاين أزمات ربو كانت تستثيرها ملابسات التحليل وما تتضمنه الأحلام وسرد الذكريات من مادة معينة .

من ذلك أن المريضة بدأ يشغلها منذ جلسات التحليل الأولى إحساس غريب فى سرتها ، ذكرها بالحبل السرى الذى يصل المولود الحديث بأمه ، وصرحت فى النهاية بأنها تشعر أن وجودنا (الطبيب المحلل) أشبه بوجود أم تحنو عليها وتسهر على أمرها . وصحب هذا التصريح شعورها بالارتياح وتوقفت أزمات الربو فى مبدأ العلاج . ولكن الأزمات كانت تعاودها من جديد كلما انقطع العلاج

بسبب العطلات الأسبوعية والأجازات . يتضح من ذلك أن ما يستثير أزمات الربو هو الانفصال عن بديل الأم . وقد وضح ذلك أيضاً فيما سبق إذ أصيبت المريضة بأول نوبة ربو كبرى عقب رحيل الزوج نهائياً ، والزوج — كما أسلفنا — بديل من الأم .

هذا التعلق بالأم نفطن إليه أيضاً فى أحلام المصابين بالربو التى ترمز إلى الرحم معبرة عن رغبة شديدة فى أن يحظوا فى كنف الأم بالرعاية والحماية . وقد سردت مريضتنا حلما من هذا القبيل : رأت فى منامها أنها تهبط درجاً طويلا يفضى إلى كهف ، ثم تجد نفسها فى مكان أشبه ما يكون بمخزن به أشياء لم تعرها اهتماما . وتشعر إذ تهبط الدرج بحضور إحدى صديقاتها . وغير خاف أن الكهف يرمز إلى رحم الأم ، وهبوطها الدرج تعبير عن رغبتها فى التراجع إلى حالة الجنين المرتبط ارتباطاً تاما بالأم . أما الصديقة فقد ذكرتها بشخصية أم من النوع المسيطر ، ويذكرها الدرج برئيس لها مات من قبل . وكان — رغم فظاظته — وافر المحاسن ، وكانت تتمنى لو أتيح لها يوم وفاته أن تستلقى إلى جانبه ، وتسند رأسها إلى كتفه . وكثيراً ما تمنت لو أمكنها أن تغير من طباعه . (ينبغى ألا ننسى أن أمها كذلك كانت عصبية المزاج ، فظة فى معاملتها وكثيراً ما تمنت ابنتها أن تغير من فظاظتها وقسوتها) . وما أن وصلت المريضة فى التداعى إلى هذه الخواطر السالفة حتى بدأت تنهج ويضيق تنفسها .

قد يعترض البعض فيما يتعلق بالأحلام التى ترمز إلى الرحم أنها ليست وقفاً على المصابين بالربو بل مشاع بين جميع العصابيين . ولكن التجربة تثبت أنها أكثر ورودا بخواطر المصابين بالربو . قام ألكسندر ببحث إحصائى يبين أن متوسط الأحلام ذات الإشارة إلى داخل الرحم تبلغ نسبتها ١٨٪ من جميع الأحلام لدى جماعة من المرضى بالربو ، فى حين أنها لم تتجاوز ٧٪ لدى جماعة أخرى من العصابيين .

* * *

نلاحظ بعد الفترة الأولى التى يتملك المرضى فيها الهلع لفكرة الانفصال عن الأم أو عن بديلها ، محاولة من جانبهم للتكيف باستخدام حيلة دفاعية خاصة ، للتخلص من الهلع ومن ثمت تتوقف أزمات الربو . هذه الحيلة الدفاعية هى أن يصطنع المريض موقف الاستقلال عن الأم . وهذا عين ما حدث

للمريضة إذ أخبرتنا بعد العودة من الإجازات فى أول جلسة أنها قضت الأسبوع الأول من الأجازة نهباً لأزمات حادة من الربو ، ثم شعرت بتحسن كبير ، وأصبحت على درجة طيبة من الحيوية وتخلصت من الألم والتوعك . وعلقت هذا التحسن بقولها : « كنت كأننى فى نشوة ، ولكننى كنت أحس أننى لن أبقى على هذه الحال ، وأنها حال وهمية ، وأننى لم أكن أنا ؛ كما لو كنت أريد أن أنسى . » والواقع أنها استطاعت أن تستأنف عملها على نحو أدهش رؤساءها . وفضلا عن هذا فقد حدث تغير هام لها أثناء الإجازة ذلك أنها — وهى المعتزلة الزاهدة زهداً تاماً منذ فارقها زوجها — تعرفت برجل واتصلت به اتصالا جنسياً . قالت لنا بهذا الصدد : « أنت المسئول يادكتور عما فعلت. » تقصد أن سفرنا وانقطاعنا بذلك عن التحليل هو الذى دفعها إلى هذا السلوك . وحقيقة الأمر أن هذه العلاقة الجنسية التى كونتها كانت علاقة مصطنعة ، حاولت بها تغطية ارتباطها الطفلى بنا (بدلا من الأم) ، وإيهام نفسها أنها تحررت من نفوذ الأم وأصبحت تسلك مسلك السيدات المستقلات . وبهذه الحيلة تتغلب على ما تشعر به فى قرارة نفسها من هلع لفكرة الانفصال عن الأم ، بسبب سفرنا . يدلنا على ذلك أنها بمجرد استئناف العلاج بعد الإجازة ، عاد لها ذلك الشعور الغريب فى سرتها وهو كما رأينا عرض تحولى يعبر فى لغة عضوية عن الارتباط بالأم . وفضلا عن ذلك فقد بدأت أعراض الربو تظهر عليها وأصبحت من جديد أقل إنتاجاً فى عملها ، وأقل قدرة على تركيز انتباهها . أما عن سلوكها الجنسى فقد عدلت عنه ، وبالرغم من إلحاح صديقها فقد صدته ولم تعد بها حاجة إليه .

* * *

ليس الصراع من أجل الانفصال البدنى عن الأم هو وحده السبب الذى يثير القلق فالربو لدى المرضى به . ذلك أن كل ما من شأنه أن يغضب الأم تتسبب عنه كثيراً أزمات الربو ، فإغضاب الأم ينتج عنه ابتعادها معنوياً بمنع حبها وعطفها وحمايتها . وهكذا فأى هوى جنسى أو عدوانى يراود النفس ، ويعتبره المريض خطراً يهدد علاقته الطيبة بالأم، يثير القلق والربو ، إلا إن وفق المريض إلى إحدى الحيل المعتادة وأخص منها بالذكر « الاعتراف » . فكلما تمكن التحليل من إفساد حيل المقاومة ، وبدأت الدوافع الجنسية تشتهى

إشباعاً ، وجدنا المريض تنازعه الرغبة فى الاعتراف بهذه الدوافع التى يخشى منها على إغضاب الأم. فما الاعتراف إلا أبرز الحيل الدفاعية الحقة التى يلجأ إليها المريض بالربو ، ففيه توبة وتكفير واسترضاء بذلك للأم وضمان لقربها منه .

بيد أن الاعتراف قد يؤلم النفس أحياناً ، ولا يبدو أنه ينجح فى كل الأحوال فى القيام بدوره الدفاعى . ولما كان المريض يعتبر الاعتراف أحياناً خطرا يمكن أن يتهدده ، فإنه يرتج عليه فى إيراده خواطره ، وينتهى الأمر باحتباس الاعتراف فى حلقه ، وفى هذه اللحظة بالذات تنبعث أزمة الربو .

تتبين لنا حقيقة هذه الحيلة بشكل أوضح من الحالة التى وصفها « سول » L.Saul الأمريكى : تلك حالة مريض بدأت تنتابه أزمات الربو عقب زواجه الذى لم تقره أمه عليه ، وما أن بدأ علاجه بالتحليل النفسى حتى أصبحت تعاوده نوبات الربو فى الشتاء لا فى الربيع فقط كما كان الحال قبل بدء العلاج . وبدأت تلك النوبات الجديدة بعد اتصاله الجنسى بفتاة ، إذ سارع مباشرة إلى زوجته تحتدم فى نفسه رغبة شديدة فى الاعتراف بكل ما اقترف . ولكنه لم يستطع فاكتفى باعترافه بمقابلة الفتاة فقط . وعلى أثر ذلك تملكته أزمات الربو مدى شهرين . وما أن أوقفه التحليل على الارتباط الوثيق بين الرغبة فى الاعتراف بالاتصال الجنسى وبين أزمات الربو حتى توقفت أزمات الربو .

* * *

وثمت عامل آخر شديد الأهمية فى إحداث أزمات الربو ، ذلك هو الرغبة فى العدوان الذى تستثيره الغيرة من أخ أو أخت . وقد كشفت المريضة أثناء ظاهرة التحويل عن غيرتها ورغباتها العدوانية تجاه أختها الصغرى مرتين . وكان وصول مريضة أخرى مثارا لهذه الغيرة العدوانية لدى مريضتنا ، وقد حدث ذلك مرتين . فى المرة الأولى بدأت المريضة تفصح فى حنق عن ازدرائها للسلوك الوصولى الذى انتهجته فتاة موظفة فى سبيل الحصول على وظيفة إحدى زميلاتها . واستعرضت مريضتنا — فضلا عن ذلك — الذكريات التالية : « أذكر أننى لمحت فى يوم من أيام طفولتى الباكرة آثار دم يلطخ بعض ملابس أمى ، أظنه الآن دم إجهاض أو حيض . ولكننى لم أستطع حينئذ لصغر سنى أن أفهم جلية الأمر . فأخبرت إحدى مدرساتى بالأمر ، فما كان منها إلا أن بلغت

أمى بكل ما أنبأتها به ، أحفظ ذلك أمى فعنفتنى تعنيفاً شديدا . وبذلك أسأت إليها حيث لم أقصد إلى ذلك . »

وفى نفس الجلسة جاء ضمن خواطر المريضة أن أمها كانت مصابة بالفتاق . إن ما استعادته المريضة خاصاً بالدم يلطخ ملابس الأم ، ورده إلى حيض الأم أو إجهاضها (وكلاهما تعبير عن تمنيها أن يفسد الحمل) ، وبالفتاق (وهو يرمز إلى انتفاخ فى بطن الأم) ، إن كل ما استعادته المريضة دليل على ما ينازعها من رغبات عدوانية موجهة ضد بطن الأم فى حالة الحمل من ناحية ، وإلى أختها الصغرى من ناحية أخرى . ولا شك أن تلك الرغبات المزدوجة تهدف إلى استبعاد غريم يهدد علاقتها الوثيقة بأمها .

ولكن الرغبات العدوانية بدورها قد تغضب الأم ومن ثمت تسبب فراقها ، لابد إذن من إجراء دفاعى ضد هذا الخطر المحتمل . وهنا ترى لزاما علينا أن نشير إلى حيلة دفاعية ثالثة ، طالما تصادفها لدى هؤلاء المرضى : تلك هى أن المريض يصطنع بنفسه سلوكا عدوانيا يستفز به الأم ، فيحقق بنفسه الخطر الذى يخشاه — أعنى غضب الأم وفراقها — وذلك حتى يتيح لنفسه أن يواجهه متأهباً له ، بدلا من أن يفاجأ به وهو غير معد لمجابهته . إذن فالمريض بسلوكه العدوانى المصطنع يحاول أن يتفادى مغبة ميوله العدوانية الأصلية ، فضلا عن أن المريض يجعل من سلوكه العدوانى المصطنع ابتلاء يستوثق به من أن الأم لن تنزل به غضبها مهما كان فى سلوكه أو نزواته من زيغ . وهكذا رأينا المريضة خلال عدة أيام تلح علينا وتلحف فى طلبها بقيامنا شخصياً بتذليل بعض مشاكلها الخاصة ، لتتراع مع رؤسائها ، وكان يتخلل حديثها عبارات فيها استفزاز وتجريح لنا .

وفى آونة أخرى طغت عليها الميول العدوانية ، قصت الحلم الآتى : « ترى دودة تكاد تندس برمتها فى الأرض . تمسكها وتسحبها إلى الخارج ، ثم تلقى بها لدجاج ينهشها . وتحمل دودة أخرى لفظة « نيويورك » كأنها ، على حد قولها ، نتاج أمريكى . ثم تستطرد ذاكرة دواء أمريكا ضد الربو ، وتخرج من حقيبتها أعلانا عنه تقدمه لنا . هذا وقد ذكرت المريضة فى فاتحة الجلسة ، أن زوجة ابنها قد وضعت ثم طلبت منى أن أخمن عما إذا كان المولود أنثى أم ذكرا . ولما التزمت الصمت ، أزعجها ذلك وقالت إنها كانت تحس

كأنها مدفوعة إلى أن تبوح لنا بحقيقة الأمر . ولكنها آثرت مقاومة هذا الدافع لأنها كانت تأمل أن تبادر بالإجابة . وأخذت ، طوال الجلسة ، تعود إلى هذه المسألة ، وفى كل مرة ، يعاودها ذلك الإحساس الذى ينتاب سرّها ، وانتهت ، برغم ذلك ، بالكشف عن جنس المولود . ولتذكر من بين خواطرها زيارة إحدى معارفها بالأمس ، وهى سيدة ، برغم صفوة قلبها ، إلا أنها عدوانية لا تحب الأطفال كثيراً . وأشارت عند تكرار الحلم بيدها لتبين كيف نهش الدجاج الدود . ثم تعلق على إشاراتها بأنها غير لائقة ، وبأنها قد تكون محل نقد من الغير . وبعد ذلك بلحظات تحس بألم يسرى فى ذراعها الذى لوحت به للدلالة على تقطيع الدود . ولنذكر أخيراً أنها فى الجلسة السابقة رأت مريضة جديدة تخرج من مكتبنا بالمستشفى فسخرت منها .

وينبغى أن نلاحظ أنه فيما عدا نوبة ربو خفيفة انتابتها فى الأمس ، فإن هذا الحلم العدوانى ، والذى يعبر عن الرغبة فى القضاء على الجنين الذى يشغل بطن الأم (دودة مندسة فى الأرض تنزعها وتلقى بها إلى الدجاج الذى يهشها) لم يعقبه الربو لا فى أثناء الليل ، ولا أثناء الجلسة . ذلك أن الجانب العدوانى من الحلم يزامله عنصر دفاعى ترمز إليه الدودة الثانية التى تحمل لفظة « نيويورك » كأنها نتاج أمريكى يقى من الربو ، ويكشف عن ذلك إشارتها مباشرة إلى دواء أمريكى جديد ضد الربو قدمت إلينا إعلاناً عنه . أما الجانب الدفاعى من الحلم فهو دفاع بوساطة الاعتراف يبدو لنا فى تقديمها الإعلان إلينا ، ثم فى نضالها كى تبوح بصلة الدودة الأولى محل عدوانها ، والمولود الجديد الذى حدثتنا عنه ، ونلاحظ أنها كانت قلقة حائرة بين رغبتها فى الإفضاء بحقيقة الأمر وبين جزعها من رغبة الاعتراف . ومع ذلك فقد انتهت بالاعتراف .

* * *

ويجدر بنا أن نذكر أن نوبات الربو كثيراً ما تنتهى بالبكاء ، وزيادة على ذلك فإن التقدم فى العلاج التحليلى يمكن بعض المصابين بالربو من البكاء بعد أن كانوا عاجزين عنه قبل التحليل . وبذلك يحل البكاء محل أزمات الربو . كل ذلك يوحى لنا أن أزمة الربو هى نوع من بكاء القلق أو الغضب المكبوت . « يؤدى البكاء فى الطفولة الأولى إلى استدعاء الأم للطفل ، ولسبب ما ،

كان الطفل فى المواقف المثيرة للربو ، عاجزاً عن البكاء ، أما فى المراحل التالية من الحياة فإن استدعاء الأم بالبكاء تستبدل به الوظيفة اللغوية ، ويلعب الاعتراف دور الرابطة الوثيقة بين الطفل وأمه » (١) .

بقى أن نفحص المشكلة الدقيقة ، مشكلة علاقة الأليرجيا بالعوامل السيكلوجية. والمشكلة على هذا الوضع تخلق معضلة لا يسهل حلها . وكل ما نستطيع قوله فى حدود معارفنا الحالية ، أن العوامل الأليرجية والعوامل السيكلوجية يكمل بعضها بعضاً ، الأمر الذى فطن إليه « تروسو » فى تجربته الشخصية السالفة الذكر ، ويؤيد وجهة النظر هذه توقف أزمات الربو إذا فضت الصراعات الوجدانية بفضل علاج نفسى ناجع برغم بقاء الأرجاع الجلدية الخاصة بالأليرجيا .

ونذكر فى الختام أن علاج مريضتنا الذى دام طوال عام ونصف مضى على نهايته نحو ثلاث سنوات ومنذ ذلك الحين لم تصبها أزمات ربو برغم كون معيشتها لم يطرأ عليها تعديل ما .

ولنذكر أخيراً أن العلاج التحليلى النفسى واجهته ، فضلا عن ذلك ، لدى هذه المريضة المشاكل الأساسية التى تصادفنا فى كل عصاب ، ولكنا نغفل ذكرها لأننا لانرى إلا إلى تخطيط السمات النفسية المميزة لمرضى الربو .

وفيما يلى تلخيص هذه السمات :

(١) الأزمة رد فعل لخطر الانفصال عن الأم أو من يقوم مقامها .

(٢) الأزمة بديل عن دموع القلق المكبوتة .

(٣) الأسباب التى تهدد المريض بفقدان أمه أو من يقوم مقامها هى ما يستهدف له من غوايات تراوده . وأن مهمة قهر الخوف من هجران الأم تصبح لدى المريض الموجه الأساسى لحياته وشغله الشاغل .

أما النتائج العملية فنجملها فيما يأتى :

(١) إن جميع المصابين بالربو الذين فحصوا فحصاً سيكلوجياً عميقاً يشتركون فى تركيب سيكلوجى واحد يمكن أن يتخذ كدعامة فى التشخيص . ويشترك هذا التركيب فى نقاط عدة مع تركيب المرضى الذين يعانون عللا أليرجية أخرى . الأمر الذى يوحى برابطة وثيقة بين التركيب المذكور والعمليات الأليرجية .

---

(١) French. Op. Cit. P. 40.

(٢) جميع الحالات التى وفق فيها العلاج بالتحليل النفسى إلى إحداث تغيير جوهرى فى نفسية المرضى بالربو اختتمت بتحسن عظيم بل وشفاء تام فى أحيان كثيرة .

مصطفى زبور

مراجع

1. Delay, J. et Ziwar, M.: Etude psychosomatique d'un cas d'asthme bronchique. Annales Médico-Psychologiques. Octobre 1948.
2. Dunbar, H.F.: Emotions and Bodily Changes. New York 1946 3d. ed.
3. French, T.M.: Psychogenic factors in Asthma. Amer. J. Psychiat. 1939.
4. French, T.M. Alexander, F. and others: Psychogenic factors in Bronchial Asthma: Psychosom. Med. Monogr. 1941.
5. French, T.M.: Psychogenic factors in bronchial Asthma *in* The Treatment of Bronchial Asthma by Vincent J. Derbes and H.T. Engelhardt. Philadelphia 1946.
6. French, T.M. Psychotherapy in bronchial Asthma. *in* Studies in Psychosomatic Medicine. Edited by Alexander F. and French, T. New York 1948.
7. Gerard, M.: Bronchial Asthma in Children. *in* Studies in Psychosomatic Med. Edited by Alexander & French. New York. 1948.
8. Gallup, P.: L'asthme d'origine Psychique. Gaz. Méd. Fr. 1937.
9. Hansen K.: Zur Frage der Psycho-oder Organogenese bei allergischem Bronchialasthma und den verwandten Kraulheiten. Uber psychische Bedingungen des Bronchialasthmas. Nervenarzt, 1930, 3, 513.
10. Mc Dermott & Cobb.: A psychiatric survey of 50 cases of bronchial-asthma. Psychosom. Med., 1, 1939.
11. Rogerson, Hardcastle & Duguid: A Psychological approach to the problem of asthma and the Asthma eczema-prurigo-syndrom. Guy's Hosp. Rep. 85, 289, 1935.

12. Saul, L.: Some observations on the relations of emotions and allergy, Psychosom. Med. 3, 1941.
13. Stokes, J.H. & Beerman H. Psychosomatic correlations in allergic conditions; a review of problems and litterature. Psychosom. Med., 2, 1940.
14. Wittkower E. Studies on the influence of Emotions on the functions of organs including observations in normals and neurotics. J. ment. Sci. 81: 533, 1935.
15. Ziwar, M.: Psychanalyse des principaux syndromes psychosomatiques. Revue Fr. Psychanalyse 4, 1948.
16. Ziwar, M. : Asthme et Psychisme. Communication an Congrès de l'Asthme. 1950.